العالم الإسلامي حقيقة واقعة

للأستاذ سيد قطب

الذين يتحدثون اليوم عن «العالم الإسلامي» بوصفه كتلة ثالثة تملك أن تلعب دورا أساسيا في سياسة العالم، وتملك أن يكون لها وضع خاص متميز لا يرتبط بسياسة الكتلة الشرقية ولا بسياسة الكتلة الغربية .

هؤلاء لا يتحدثون عن مسألة تاريخية قد انقضى أوانها، ولا يتحدثون عن أمل في ضمير الغيب البعيد يتعلق به الخيال .. إنما يتحدثون عن حقيقة واقعة . حقيقة قائمة ، لا سبيل إلى إنكارها ، ولا سبيل إلى المغالطة فيها . .

إنها حقيقة تاريخية ، وحقيقة جغرافية ، وحقيقة اقتصادية ، وحقيقة فكرية وشعورية .. فلها كل مقومات الحقائق الواقعة التي لا تجدي في دفعها المغالطة والنكران . . .

إنها حقيقة تاريخية . . فالعالم الإسلامي كان كتلة واحدة ذات ثقل واحد في ميزان التاريخ ، وميزان الاتجاه العالمي ، وميزان السياسة الدولية ، وميزان الأحداث الإنسانية .. واقد ظل كذلك منذ القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع عشر . أي حوالي ألف ومائتي عام على الرغم من كل ما حاق به من محن ، وكل ما أصابه من ويلات ، وكل ما دب في كيانه من تمزق . والفترة الوحيدة التي خف فيها وزن الكتلة الإسلامية هي هذه الفترة الأخيرة التي لا تتجاوز قرنا واحدا من الزمان

وهي حقيقة جغرافية ؛ فالكتلة الإسلامية تمتد في حدود متصلة أو شبه متصلة من مراكش إلى تونس ، إلى الجزائر ، إلى طرابلس ، إلى وادي النيل ، إلى فلسطين ، إلى سوريا ولبنان ، إلى شرق الأردن والعراق ، إلى نجد والحجاز ، إلى اليمن ، إلى إيران ، إلى تركيا ، إلى أفغانستان ، إلى باكستان ، إلى أندنيسيا . وتكون حاجزا كاملا يفصل بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، بحيث يصعب تصور أي التحام بين هاتين الكتلتين لا يمر بذلك الحاجز الطويل العريض المتصل الحدود .

وهي حقيقة اقتصادية ؛ فهذه الرقعة الفسيحة من الأرض تحوي من الخامات والموارد الطبيعية والانتاجية ما يكفي لتكوين وحدة اقتصادية متكاملة ، تكاد تكفي نفسها بنفسها . فإذا احتاجت

أخضع مائة ألف عربي لحكمه ، ومائة الألف عربي بعد نحو سبعين سنة أخضعوا ملايين وملايين من البشر واستولوا على ممالك العالم المعروف في ذلك الزمن !

قال علماؤنا رضي الله عنهم : يجب على الأب والأم أن يلقنا طفلهما الصغير حينما يعقل هذا التعليم البسيط وهو : (يا بني إن نبينا محمدا ولد في مكة ، وهاجر إلى المدينة فدفن فيها)

فإذا انتقل الصغير من دور الطفولة إلى دور النشوء (أو دور التعليم الابتدائي) فما هو أول ما ينبغي للمعلمين أن يلقنوه إياه ؟

أرى أن يلقنوه بيتا من الشعر قاله أبو تمام وهو :

الصين منظوم بأندلس إلى جدران رومية فملك ذمار

(وذمار) اسم قديم لليمن . يقول أبو تمام في هذا البيت إن ممالك الإسلام في زمنه (أي في حدود المائتين للهجرة) كان يحدها شرقا الصين ، وغربا بلاد الأندلس ، وشمالا روما (وكان المسلمون اقتربوا منها وهددوها) ، وجنوبا بلاد اليمن الواقعة في جنوب البحر الأحمر ! فما أعجب هذا البيت السحري الذي جمع فيه أبو تمام دنيا الإسلام بحدودها الأربعة !

وهكذا كانت عاقبة الهجرة النبوية : وثب الإسلام بعدها من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى سعة : فهو لم يكد يخرج من ضيق خيمة (أم معبد) حتى دخل من سعة بلاد الله خيمة يحدها الخافقان ، ويأوي إلى ظلها الثقلان !

دمشق المغربي

الى شيء فهي تملك أن تقدم نظيره ، ويبقى الميزان الاقتصادى العام فى صالحها . وقد برهنت الحرب العالمية الماضية على صحة هذه الحقيقة ؛ حينما تعذر الاستيراد من أوربا أو أمريكا لمنطقة الشرق الأوسط ، وأقيم بها مراكز تموين لتحقيق كفاية نفسها بنفسها .. فاذا أضيفت الى منطقة الشرق الأوسط تلك المساحات الإسلامية من الشرق الأقصى تمت الكفاية الذاتية ، وثبتت تلك الوحدة الكاملة الاقتصادية .

وهى حقيقة فكرية وشعورية ؛ فهذه الكتلة المترامية الأطراف يجمع بينها رباط فكرى واحد ورباط شعورى واحد . رباط العقيدة الإسلامية ، والتفكير المنبعث منها ، والنظام الاجتماعى المتأثر بهذه العقيدة ، حتى بعد أن طغت عليها النظم الغربية ، وبعد ما بعد الكثير من حكوماتها عن حكم الإسلام وتعاليم الإسلام . وما تزال هذه الكتلة تملك ذلك الرباط الواحد الذى تستمسك به جميعا

إن هذه المقومات المتعددة المتكاملة لا يجتمع مثلها لواحدة من الكتلتين الشرقية أو الغربية . فهذه أو تلك تملك بعض هذه المقومات ، ولكنها لا تملكها مجتمعة ، كما تملكها الكتلة الإسلامية ، أو العالم الإسلامى . . وإذن فلا مجال للتشكيك فى قوة المقومات التى تملكها هذه الكتلة ، ولا فى قيمتها ، ولا فى أنها مقومات طبيعية ، غير مصطنعة ولا متكلفة . وليست ناشئة من مجرد الرغبة فى تكوين كتلة ثالثة ؛ وإنما هى تفرض نفسها فرضا ، وتحتم قيام هذه الكتلة المستوفية لكل شروطها ومقوماتها

هذه بديهية واضحة لأنها تعتمد على الواقع المشهود . . ولكن الكثيرين يحاولون التشكيك فيها بشتى الوسائل . ففريق يزعم بأن العالم اليوم ينقسم الى كتلتين اثنتين : الشيوعية فى جانب ، والرأسمالية فى جانب . ويزعم أن لا سبيل الى اختيار طريق ثالث ، فإما أن ننضم الى الكتلة الشرقية أو أن ننضم الى الكتلة الغربية . . وليس أكذب من هذا الزعم ولا أبعد منه عن الحقيقة الواقعة التى ينطق بها الواقع المجرد من وجود كتلة ثالثة لها كل مقوماتها ، ولها كل إمكانياتها .

وفريق يزعم أن الكتل لا تقوم على أساس الوحدة الجغرافية ، ولا الوحدة الفكرية والشعورية .. إنما تقوم على أساس النظم الاجتماعية . والنظم الاجتماعية التى يعرفها العالم هى الشيوعية فى الشرق والرأسمالية فى الغرب . ولا سبيل الى الحديث عن أى نظام اجتماعى آخر . فإلا تكن الشيوعية فهى إذن الرأسمالية ولا ثالثة لهما . . وليس أبعد من الحقيقة عن هذا الزعم القائم على الجهل ، وإن كان يلبس ثوب العلم ! فهناك نظام اجتماعى ثالث مستقل كل الاستقلال عن النظام الرأسمالى وعن النظام الشيوعى . نظام كامل شامل ، له رأيه فى الحكم ، ورأيه فى توزيع الثروة ، ورأيه فى العلاقات بين المال وأصحاب العمل ، وبين الملاك والفلاحين ، ورأيه فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وعلاقة الأفراد مع الدولة ، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى . . وهو يصدر فى كل هذا عن فكرة مستقلة غير الفكرة الرأسمالية وغير الفكرة الشيوعية . وقد يلتقى بهذه أو بتلك فى بعض الجزئيات ، ولكن له فى النهاية هيكله الخاص ، وفلسفته الخاصة ، وتنظيماته الخاصة .. وهو حين يقاس الى الرأسمالية أو الى الشيوعية تبدو هذه كما تبدو تلك نظما متخلفة بالقياس الى النظام الإسلامى الاجتماعى . مشحونة بالأخطاء والمظالم والتعسفات . كما تبدو أقل قدرة على التطور وعلى مسايرة نمو البشرية من النظام الإسلامى .

وفريق يزعم أن هذه الكتلة الإسلامية من الضعف اليوم بحيث لا تملك أن تصبح كتلة ثالثة تقف بجانب الكتلتين أو إحديهما . وأن العالم الإسلامى قد أدى دوره قديما ولم يعد له دور جديد . . وهذا الزعم قد يكون مفهوما حين تردده إحدى الكتلتين المتعاديتين . لأن الكتلة الغربية المستعمرة تردده لتقتل كل محاولة للتخلص من ربقة الاستعمار البغيض . والكتلة الشرقية تردده كى تفهم الشعوب الإسلامية المستعمرة أن وسيلتها الوحيدة للتخلص من الاستعمار هى الارتماء فى أحضان الشيوعية ، وأنه لا أمل فى أن يكون لها هى نفسها كيان خاص مستقل .. هذا مفهوم . . فأما حين تردده نحن ، أو حين نؤمن به ، فهذا هو العجب المناقى للرغبة البشرية الطبيعية فى أن يكون للمرء كيان خاص ، ومركز خاص ، واحترام خاص . وإن هو إلا المسخ الذى يصيب الفطرة . وما يقول بهذا إلا المسوخون الذين حولتهم دعاية هذه الكتلة أو تلك إلى فتات آدمى وحطام !

إن العالم الإسلامى حقيقة واقعة . وإن كانت هذه الحقيقة

قد خف وزنها فترة من الزمن ، أصاب الكتلة الإسلامية فيها ما أصابها من الوهن والضعف ، حتى وقعت فى قبضة الاستعمار.. فإن كل الدلائل تشير اليوم الى أن هذه الفترة قد انقضت ، وأن البعث قد آن أوانه ، وأن القوة الكامنة فى هذه العقيدة ما تزال تعمل ؛ وأن هذه القوة لم تمت ولم تتطوء ، ولكنها كانت تجتاز فترة تكون وتجمع . وقد اجتازتها الآن . .

لقد انبعثت دول إسلامية جديدة ، ولقد نهضت أمم إسلامية وشعوب . ولقد انبعثت الشعلة المقدسة تضيء من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه . ولقد تناءت شعوب العالم الإسلامى كله كتلة واحدة ، وراحت تتجمع تحت راية واحدة . . الراية التى أظلتهم أول مرة ، فاندفعوا تحتها إلى أقطار الأرض جميعا . .

ولقد خفتت أو كادت تلك الأصوات المنكرة التى كانت تدعو الى القومية الهزيلة الضيقة وراء الحدود الصغيرة المصطنعة . وتبين للغالبية الساحقة أن القومية الإسلامية هى القومية الحقيقية التى تجمع بين هذه الشعوب . وان حدود الوطن الإسلامى هى الحدود الحقيقية ، وما عداها كله نفاخ وضعها الاستعمار ليقع فيها الغافلون والمغرضون . ثم يتفرق الوطن الإسلامى الى دويلات صغيرة ضئيلة عاجزة . تحت عنوانات القومية ! ثم لا يفيد من هذا أحد كما يفيد المستعمرون الذين واجهوا العالم الإسلامى وما يزالون يواجهونه بروح صليبية وبسياسة صليبية ، يتابعهم فيها أعداء هذا العالم الإسلامى فى الشرق والغرب سواء .

إن العالم الإسلامى حقيقة واقعة . وما عاد يجدى أحد أن يقف فى طريق بروزها بعد اليوم . والكتلة الثالثة ضرورة إنسانية ، قبل أن تكون تكتلا إسلاميا . . ضرورة إنسانية لتحقيق غرضين أساسيين من أغراض البشرية فى هذا الطور من التاريخ :

الغرض الاول :

هو تحقيق استقلال جميع الشعوب المستعمرة ، والقضاء على الظل الاستعمارى البغيض فى الأرض . فلقد استطاع الاستعمار أن يتصيد الشعوب الإسلامية واحدا واحدا ، حينما تمزقت وحدتها الكبرى ، وضعفت عن حماية أنفسها فرادى . فاذا ارتدت اليوم الى نوع من الوحدة فى صورة تكتل ذى كيان جغرافى واقتصادى واجتماعى . . ثم عسكرى أمكن أن تصمد للاستعمار ، وان تتخلص من براثنه ، دون ان ترتمى فى احضان الشيوعية.. وإن كان هذا لا ينفى ان تمد يدها الى الكتلة الشرقية من الناحية السياسية لا الناحية الاجتماعية ، فيما تتفق فيه مصالحهما. ومصالحهما تتفق عند مكافحة الاستعمار . وفى هذا المجال تستطيع الكتلتان الشيوعية والإسلامية ان تؤديا دورا مشتركا فى هذا المجال وحده . وفيه الكفاية والخلاص من الاستعمار

الغرض الثانى :

هو تجنيب البشرية ويلات حرب ثالثة — او على الأقل تأخيرها الى اطول امد ممكن . فالكتلتان المتعاديتان اليوم إنما تتنازعان على ارض الكتلة الثالثة وخاماتها ومواردها . والذين يقولون عن إحدى الكتلتين : إنها مجموعة من الملائكة ذوات الأجنحة البيض التى لا تبغى فى الأرض إلا السلام البرىء ، بلا مصلحة ولا غاية ، إلا غايات القديسين والملائكة الأبرار . . إنما يحتقرون عقولهم أو عقول الناس . وإنما يقولون كلاما سخيفا لا يصدقه حتى الأطفال . : وحين تبرز إلى الوجود كتلة العالم الإسلامى. ستفكر كل من الكتلتين مرتين قبل الإقدام على الحرب . لأن أرض الكتلة الثالثة ومواردها لن تكون يومئذ صيدا رخيصا سهلا ، يسيل له لعاب الشرقيين أو الغربيين . فضلا عن أن هذه الكتلة الثالثة تملك إيجاد التوازن بين القوتين ، وتملك أن تهدد الفئة الباغية بأنها ستكون ضدها . وان تقدم على الحرب كتلة تقف لها كتلة العالم الإسلامى بالمرصاد ، وتنضم إلى خصومها فترجح الكفة ترجيحا لا شك فيه .

وبعد فأحب أن أقرر فى نهاية الأمر أن الحديث اليوم عن الكتلة الثالثة ليس دعوة لقيامها . ولكنه تقرير لوجودها . وجودها الذى لن يملك أحد ولا قوة أن تعدمه . لأن طبائع الأشياء ، وتطورات التاريخ ، وضرورات الإنسانية . . كلها تدعو إليه وتنادى به . . والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

سيد قطب